

اسم المشترك يوسف غمراوي

الجامعة اللبنانية الأميركية

السنة الثانية

الإختصاص هندسة معمارية

رقم الهاتف 81039350

خلفية القصة

تحكي القصة عن شاب لبناني، يعاني من مرض نفسي يدعى "اضطراب الهوية التفارقي" أو ما يعرف بتعدد الشخصيات. يوم انفجار بيروت، عاش الشاب الكارثة من أكثر من منظور وتخيل نفسه في أكثر من شخصية، فسردها علينا من خلال هذه القصة القصيرة. لكتابة هذه القصة، أجرى الكاتب العديد من المقابلات مع ضحايا وعائلات تأذت من إنفجار بيروت، وبالتالي، فإن معظم الأحداث المذكورة هي مبنية على وقائع حدثت يوم الإنفجار، مع بعض المبالغة عندما لزم الأمر.

البرعم الجديد

صمت أزلي عم المكان، عقارب ساعتني توقفت عن الدوران. وكأن الكون عن هذه اللحظة انتهى، في بقعة دمار كانت يوما تسمى لبنان. لا أذكر شيئا أبدا، انطلق دوي وانفجار عظيم، ومن بعدها رمينا أرضا رمي الحطام. إبني طارق! كان بين يدي قبل الكارثة!

فتحت عيني، فإذا بي في غرفة جدرانها بيضاء، تزينها بقع حمراء داكنة. لا بد أنني في غرفة مستشفى. حاولت النهوض، فإذا بمرضة تردني إلى وضعية النوم.

- " ابقى مكانك أرجوكي، رأسك تعرض لخدوغ خطيرة ونحاول أن نأمن لك غرفة عمليات في أسرع وقت ممكن" ردت الممرضة.

صفعتها بما تبقى لي من قوة، سقطت أرضا، وهربت برداء أبيض لا بد أنهم ألبسوني آياه قبل أن أصحو. ركضت كما لم أركض سابقا، فتحت باب غرفتي، فإذا بعجوز ملقى على الأرض، لا يظهر من وجهه إلى عينيّن حمراوتين أغرقتها الدماء. قفزت من فوقه، ومن فوق جثث أخرى ملأت الممرات. لم يحاول أي الممرضين اللحاق بي، فالمستشفى بدت كخلية نحل حمراء، كمهرجان أعضاء بشرية، لا تسمع فيها إلا صراخ، بكاء، وأنين. ربما لم يلحقوا بي أيضا لأنهم يعلمون أن الله يمنح الأم قوى العالم عندما يتعلق الأمر بأطفالها، لتصبح كالوحش المفترس الذي ينقض على فريسته دون رحمة، لأنهم يعرفون أن لا حاكما ولا قنبلة ولا فسادا، يمكننا أن يعارضوا طريق أم تحارب لتتقذ ضناها.

وصلت إلى الشارع حافية القدمين، شاللت من الدماء تتساقط من رأسي، جسدي، وحتى قدمي. أين أنا! أين كنت عندما دوى الإنفجار! أين طارق!؟

ركضت مجددا في شوارع بيروت بحثا عن ولدي. كانت الأرصفة مليئة بالمشاهد المروعة التي يصعب أن يتصورها عقل بشري. سرت أسبح في برك الدماء، أتعثر بأشلاء أناس لم، أو لن يستفيقوا. وصلت إلى مفترق طرق. على الزاوية، كان هناك طفلة صغيرة تحمل دمية عروس بيضاء، لا بد أنها أنقذتها من تحت الركاب. غطى الغبار شعراها الأشقر، وغمرت الدموع عينيها الزرقاوين. نظرت لي نظرة نجدى، تسألني أن أنتشلها من هذه الضجة الصاخبة، من قهر الشارع وبؤس العالم. لا بد أنها أضاعت أمها.

لحظة! لا بد أن طارق يقف مثلها، على زاوية أخرى، يبكي وينتظر قدمي. ركضت مجددا، دون توقف، وكأن العالم أصبح طريقا، لا أرى في نهايته سوى وجه ابني الصافي، وكان مصير شعبي أن يبقى في بحار البؤس غريقا، وكان ما عاناه طوال سنين الحرب ليس بكافي.

بعد ساعات من البحث، وجدت طارق، بثوبه الأزرق الممزق، بابتسامته البريئة الخجولة، بوجه ملائكي أبيض لم يمسه الغبار ولا الدماء. وجدته بعد أن أغمضت عيني استسلاما، و سقطت أرضا حلى حافة الطريق. التقينا في السماء، حيث ليس للفساد ولا للكراهية سبلا لتفسد علاقة ابن بابنها، لتشوه أمومتي ولتنتشل طفلي من حضني.

- "نم يا ولدي، نحن الآن في أمان، ليس للعنف ولا للكراهية تواجد في حضرة الله."

في مشهد مختلف، أنا الآن أحمد، عجوز في سبعينياتي، عالق تحت باب الدار. لقد مر قرابة الخمس ساعات على اندلاع الانفجار. حاولت النهوض مرارا، ولكن خانني جسدي. خانتني سواعدي التي كان من المفترض أن تستريح عند سن التقاعد، وظهري الذي انحنى سعيا طوال عمره وراء لقمة العيش. لم أقترّب من الباب إلى هذا الحد من قبل، لم أتخيل يوما أن يهمس لي باب البيت في أذني، أن أسمعها يتكلم، أن يعيد لي ضحكات أولادي، و هرولة أحفادي في المنزل. أن يخبرني عن فرحتنا الكبيرة بولادة ابنتنا علي، عن رقصتنا الجماعية الأولى على ألحان فيروز، عن نداهاات زوجتي الحنونة وطهيبها الشهوي، وكثير من لحظات الحنين، المحبة، والأمان التي قضيناها في هذا البيت. عادت بي الذاكرة إلى طفولتي في هذا البيت، الذي ورثته عن أبي، والذي بدوره ورثه عن أبيه أيضا. رأيت نفسي طفلا صغيرا يتعثر بالأعابه في باحة البيت، لا يسأل عن غم ولا عن هم. حينها، كنا نعيش بما يسمى "عصر لبنان الذهبي". كانت البلاد تزدهم بأعداد هائلة من السواح، ولم تكن نعرف ديانة أو طائفة جارنا في البيت المقابل، كانت بيروت تزخر بعبق السنديان والبخور الفواح، أصبحت الآن تمطر رصاصا ودماء وقنابل.

في بلادي، تسلم الفريسة نفسها لمطارديها، وتغرب الشمس قبل أوانها. في بلادي يشيب الرجل في عشرينياته، يكبر الطفل وهو رضيعا، وتسلب المرأة أدنى حقوقها. في بلادي، يذل العجوز في أواخر حياته، يسجن تحت باب الدار، ويغمض عينيه استسلاما هو أيضا، ولكن للمرة الأخيرة.

في مشهد آخر، أنا الآن سلمى، أخت فقدت أخيها شربل يوم الانفجار

كنت مع عشرات المرضى، في الغرفة نفسها. البعض يبكي، البعض الآخر يصرخ. انا كنت من الذين سألت دماؤهم بدلا من دموعهم. بجاني، طفل صغير لم يكمل الخامسة بعد، يرتدي ثياباً رثة، أو بالأحرى أصبحت رثة، ممزقة، حملت ملامح الحرب. يقف قرابة والدته، يسألها أن تستفيق. كنت أراقبه دون أن أتفوه بكلمة، أتأمل فقط، أتأمل الستون عاما التي عشتها في لبنان، شريط الذكريات كان مؤلماً. بيني وبين هذا الطفل ألم مشترك، وجع عشناه سوياً، ومشاهد الحرب و الانفجار رأها كلانا. الفرق الوحيد هو ستون عاماً قضيتها في لبنان و لم يقضها بعد. ستون عاماً من الفساد، من الفقر، من الحاجة، من الحرمان، من الذل و القهر و يفرغ القاموس من كلماته قبل أن ينتهي.

- "قومي ياماما!"، يصرخ ولا تجيب.

ذرفت حينها دمعتي الأولى منذ لحظة الانفجار و عادت بي الذاكرة إلى لحظة وعيي الأولى بعد الانفجار:

استفتقت ملقاة على الارض، الباب من فوق، لا أقوى على الحركة. لم أسبح منذ سنوات، اكره البحر و اكره السباحة. ولكن اليوم، انا أسبح في بحر من الزجاج. زحفت قدر المستطاع، حاولت النهوض. الزجاج من جديد. يدخل الزجاج جسدي، و يغرز الألم في أعماقي غرزا، ألما أشعر به حد الآن. حاولت النهوض مجدداً، وضعت أكياس البلاستيك تحت قدمي، ظناً مني بأنني أحميها. مسحت وجهي بمنديل أمي الملقى على الأرض. كانت قد أهدتني إياه قبل أسبوع من وفاتها.

خرجت من البيت، اقتربت من الدرج. عادت بي الذاكرة مجدداً، لكن هذه المرة إلى الكرانتينا. كنا ننتظر حتى يتوقف المطر، فننزل أنا و أخي إلى الشارع نبحث عن الحفر في الطرقات التي اشتهر بها لبنان و نفقر فيها فيبدأ مهرجان المياه. مهرجان المياه استبدل اليوم بمهرجان الدماء، و أخي، سندي و صديقي، ينزل على الدرج أمامي، بالغطاء الأبيض، مغمض العينين، على أكتاف شبان ثلاث. كالملاك كنت يا أخي، كالملاك، بمرورك الحلو المرّ، بخفتك، بوجهك المنير المزين بالبقع الدامية. كالملاك كنت و لا زلت يا أخي. أينك يا أمي تزين أخي يزف الى عرش الموت. على الأقل ستقابليه هناك، في جنتكم، و سألعن وحدتي البائسة هنا من دونكم.

لم أتفوه بكلمة هنا أيضا، كنت أتأمل فحسب. أتعرفون ماذا يعني أن يموت أخي أمام عيني؟ يعني، أن أدفنه بكلتا يدي. يعني أن أدفن ما تبقى لي من حلو هذه الحياة. يعني أن أتوه في عالمي وحيدة، دون ملجأ أسكن إليه ولا سند أتكأ عليه.

لم يمت أخي، لم يرحل. أشعر به، متأكدة أنا من ذلك. يقرأ بعض الآيات، ويرتل حيناً آخر.

ولكن قبل أن يذهب أخي إلى فردوسه في السماء، قرر المساعدة، قرر إعادة بناء جنته هنا على الأرض، جنته بيروت، سأخبركم كيف.

لنعود إلى المستشفى، صوت مولود جديد يعلو في الغرفة المجاورة. بعد أن سألت الممرضة، عرفت أنه ابن أخي الشهيد. ماتت روح أخي لتولد روحه الأخرى، لم تمت بيروت إلا لتولد من جديد.

تتوه الحروف لتصف الشعور الذي انتابني عندما اتت به الممرضة الي، وتضع الكلمات في وصف أحاسيسي عندما امسك اصبعي بيده الصغيرة منتشبتا به.

يده تلك كانت البرعم الجديد الذي نبت من وسط الركام. كانت ضوء الأمل هناك في آخر النفق. رأيت في هذا الطفل لبنان كله، يطالبني وشعبي أن أنهض. في عينيه، رأيت مقاومة أبيه، ومقاومة كل أب لبناني يسعى ليطعم عائلته، وإصرار كل جندي لانتشال الوطن من بؤرة الظلام، وجهود كل معلمة في تحضير الجيل الجديد لاستكمال ما بدأه أجدادنا لحفر اسم لبنان على رأس قائمة الحضارات الإنسانية.

بلادنا بحاجة لسواعد جديدة، وخبرات شبابها، وصدق زعمائها ... هذا صحيح، ولكن بلادنا لن تزيد إلى تدهورا وانحطاطا ببناء ما نسميه "لبنان أحلامنا". نعم، لا أريد أن نبني لبنان أحلامنا، فأحلامنا نحن باتت سطحية. حلمنا مأكلا ومسكنا وكهرباء، رغيفا من الخبز أو خزاننا من الماء. حلمنا أصبح مجرد أن نعيش، ولو حتى في أسوء ظروف معقولة. ولكن لبنان أكبر من ذلك، أكبر من ذلك بكثير. بلاد الأبجدية ومنيع الحضارات لا يمكن أن تظل بؤرة للقيح والفقر والقتارات. ربما مع تأمين أبسط متطلبات العيش للجيل الجديد، ترقى أحلامهم لمستوى ما حققه رجال الإستقلال سابقا. و حينها فقط، يمكن السعي من جديد للبدء برسم ملامح ما نسميه بال"الحلم اللبناني الجديد".

الحرب لا تستأذنك حين تأخذ . ونحن في لبنان، نخوض حربا شرسة مع الوطن. نعطيهِ مالنا وأبناءنا وأملنا ومستقبلنا. ونأخذ الموت، القليل من الأمل، والكثير من الدموع.

ما علينا أن نفعله في لبنان، هو أن نأخذ هذه الدموع، نسقي بها القليل من الأمل الذي اختطفناه. ليعود وينبت غاباته من جديد. فنحيا به، ويحيا معنا لبنان.